شجرة على مساحة الضوء

حدق فى ظلمات الغرفة، انتبه من عشرات الأحلام والكوابيس التى جثمت على صدره لعشر ساعات متقطعة، متقلبا بين الغفوة والصحوة، تدور به الأفلاك موغلة فى الظلمة حلق فى فضاء خرافى أسطورى الأعماق لم يستوعبه عقله الوسنان، فى تلك اللحظات اجتاز اختبار اليقظة حين فرك عينيه وتطلع للسقف يريد أن يرى شكل الكرانيش التى تحيط بالنجفة المنطفئة، تطور الأمر ليميز شكلها الذى يحوى ذيلا من نباتات زخرفية طراز يونانى قديم لفرعين من أوراق الاسكنثيا يحيط بنجوم وزهور. كلفه عملها ثلاثة أيام من الرقابة الصارمة لتجليات الأسطى فتحى وتأمره عليه وكأنه يؤدى شغله مجانا أو كأنه هو المهندس لا هو. كلفته الحوائط والغرف كثيرا، ليعيش بها وحده، عند هذا الحد أحس بأنه أفاق فعلا. لم تكن به رغبة فى القفز سريعا من الفراش كما اعتاد دائما. فأخذ يتذكر على مهل الكابوس الذى راوده البارحة، شعر بعقله ينشط وحاسة الذاكرة تتدخل لتسرد وقائع هائلة. يراها أمام عينيه عن وعى بعد أن كانت تتصرف به فى طغيان شديد وهو فى اللاوعى الأسود الكئيب، كانت باسمة الشكل بيضاء البشرة لم ير

أروع من بشرتها المحمرة الخدود وقد ارتدت ثوبا، أسودا طويلا بشرائط حمراء على الأجناب جعلتها كالتنين الأسطوري، لم يظهر لها شعر فالثوب يغطيه. ولا قدمين، وبقدر جمالها وابتسامتها البشوش بقدر ما خافها وهاب أن يقترب، حدقت فيه طويلا ثم نادته أكثر من مرة تعال قال لها إنه لا يعرفها، عندها طار فى أفلاك الفضاء. رأى النور أمامه ينبثق من العتمة وهو يجتاز السماء بسرعة خرافية وقد امسك بأطراف ذيل فستانها حالك السواد ذى الشرائط الحمراء، سحابة من أضواء شتى تحمل آلاف النجمات، لولب من الدوائر تلف به، فزع حتى الرعب. ظل يمسك بطرف الشرائط. حتى داخ وأفلتها، هوى إلى الأرض. تلقفته بهدوء وانسيابية وجعلت ارتطامه بطيئا جدا صار فى يدها كالخيوط أو الورق، تحول واستدار ثم طرحته وجمعته وتحول إلى نبتة من عشرة أفرع، يداه فرعان، وكذلك رجلاهُ ورأسه أصبح أفرع سمع وبصر ولسان وأنف أصبح شجرة بعشرة فروع نبتت من أرض فيها مياه تسقيها تلك المجهولة ذات الوجه المتورد، بل تظلل فروعه عليها حين تشتد الشمس حرارة، مازالت تضع نفس غطاء الرأس الأسود ذو الأشرطة وتلبس نفس الثوب وهو لا يبرح مكانه، أما فروعهُ تتمايل حيث تسير وإن ابتعدت زادت طولا. ما معناه؟ ما معناه هذا الحلم الكابوس المعتم رغم النور ورغم الشمس ورغم الوجه الباش المتورد، كان ضيق الصدر حين رآه وحين تذكره ضاق صدره أكثر من يدرى لعله خير، لغز التفسير يحير عقله، أرغمه على التفكير فى

تفسير ماذا يعنى ذلك،نوران الوجه وضوء العتمة سحابة الأضواء والنجوم تقابل وتضاد. رغم القدرة على تجاهل ما لا نفهم، لم يقنع نفسه بنسيان الأمر تماما. أغرق نفسه فى أمواج التعامل والعمل، والبشر وأحداث الساعة، ظل يطارده لغز التفسير، ومقاطع من رؤياه تطل فى ثنايا عقله الواعى المنهك بالوهم وبالتفكير النسيان أداة العاجز، التجاهل أشعره بغصة وكأنه يفعل غصبا مالا يريد، لم يتحمل ذلك، زادته الجولات اليومية كآبة، فتش عن سهرة بين معارفه القدماء زملاء وأصدقاء حياته، معهم قد ينسى تلك الرؤيا الكابوس التى تنطبع الآن فى ذاكرته،. فالمرأة تظهر كالتيكون المارد وتلعب بأفكاره فى اليقظة حتى إنه اعتاد اقتحامها له من وقت لآخر بتفاصيل أكثر وضوحا، وكأنه فيلم اجبارى تراه كل يوم، إنها هلوسة بصرية تأثير الدخان وتلوث المكان والأطعمة الجاهزة، بل والوحدة البيتية التى تسكنك وأنت تتخطى سن الأربعين، ربما عليه ألا يصير وحيدا، ففى ليل المقهى يجتمعون كل أسبوع، يتجاذبون الحديث فى كل شيء، حتى انهم أطلقوا عليه حديث الأربعاء، لم لا.. ليسمع ويحاكى الآخرين مرح الساعة، لم يفاتح أحد فى رؤياه، قد تفضح شيئا ما فى داخله يريد الا يطلع عليه الناس. شيئا خاصا، أحسه فى أعماقه معقدا وكثيفا، حتى عثر على صديق غامض يقاربه فى العمر، لا يعرف عنه سوى الاسم والوظيفة وأنه متحدث جيد فى كل الموضوعات، فاتحه خلسة رغم أن كل شيء مشاع السهرة. رؤيا تتكرر أهمنى ان أعرف ما تعني، أدرك الغامض ما

يعتمل بعقله فقال لا تقصصها الآن ابق حتى نهاية السهرة. عندها قد لا نحتار فى التفسير وينقلب الليل لنهار، بعض الأحلام مثل الدنيا من أفكارك. قد يتحقق أمر وقد لا تتحقق كل الرؤيا، رموز من دنياك مثل المرأة والأغصان ومساحة الضوء الذى تتحرك فيه، الخوف من المستقبل وكيف تعيش الآن وحدك، لا تحمل هما قد يرضيك التفسير وهو غير مؤكد. استراح كثيرا ذلك تأويل الرؤيا، ارتضى تصور الصديق الغامض، لا شيء إلا أمور الدنيا العادية، السعى لكسب العيش والرغبة فى التطور، سوف يستقر كجذع الشجرة. تميل مع الريح فى تُئدة وتحجب الأفق وحر الشمس، نوران قد يزينان حياته ربما الأفرع أولاد أو ربما أقارب، لكن من هى المرأة. من تلك البيضاء المحمرة فى ذات ثياب السحرة السوداء كاهنة الرؤيا ذات النور والظلمة والشرائط الحمراء؟